الفصل الثَّامن

النزعة البدائيَّة: هل السَّببيَّة هي المبدأ الأساس والأهمُّ؟

لو لم يكن بالإمكان تعريف السَّببيَّة، فماذا سيحدث؟ أليست السَّببيَّة واحدةً من الأمور الأساسية والجوهريَّة؟ في هذه الحال، قد تُعرَّف مفاهيم أخرى بناءً عليها، أمّا السَّببيَّة في حدِّ ذاتها فقد تكون بدائيَّة.

بدأنا بالبحث عن افتراضات سببيَّة، وحلَّلناها بصورة فاعلة؛ فالتحليل يختزل شيئًا ما إلى آخر ومن ثمَّ يفسِّره، لكن توجد فجوة تفسيريَّة في النظريَّات جميعها التي تناولناها؛ فقد لا تتمكن النظريَّة من استشعار بعض حالات السَّببيَّة، وقد تحكم النظريَّة على شيء ما بأنَّه سببيٌّ في حين أنَّه لا يبدو كذلك.

توجد ردود مختلفة على وجود ثغرات، وعيوب في هذه النظريَّات جميعها بوصفها تحليلات للسَّببيَّة، وقد أُوجز واحد منها في الفصل السَّابق.

obeikandl.com

يمكننا الإشـارة إلى أنَّ السَّـببيَّة مفهومٌ تعدُّديٌّ؛ بمعنى أن نظريَّة ما تُطبَّق في بعض الحالات، ونظريَّات أخرى مختلفة في حالات أخرى.

مـع ذلـك، فالـرَّدُّ من نـوع مختلـف، وهو: ماذا عـن القـول بإمكانيَّة فشـل أي تحليـل؛ لأنَّ السَّـببيَّة مفهـوم أساسـيٌّ جـدًّا غـير قابـل للتَّحليـل؟ وعليه، سـيكون مشروعنا الذي ناقشنا بعضًا من فصوله فيما تقدّم- لفهم حقيقة السَّببيَّة بطرق مختلفة، ومتعدِّدة- مشـروعًا محكومًا عليه بالفشـل، وسـتكون المنهجيَّة التحليليَّة الشَّائعة جدًّا في الفلسفة مُضلِّلةً في هذه الحال.

لقد رأينا كيف تحدَّى فيتجنشتاين فكرة إمكانيَّة تعريف كلِّ شيء، ونذكِّر هنا بأنَّ التَّحليل يختلف في صِبْغته عن التَّعريف؛ فالتَّعريف هو تحديد ماهيَّة شيء ما في العالم بدلًا من تفسير معاني الكلمات، وقد نزع الفلاسفة إلى تقديم تحليلات عالميَّة كثيرة متجاوزين عالم التعاريف، ومع ذلك سيبقى هذا المشروع هو الرئيس للموضوع، فقد شـهدنا في مطلع القرن العشـرين صعود نجم ما يُسـمى بالفلسفة التحليليَّة.

إذا تناولنا مفهومًا فلسـفيًّا مزعجًا مثل المعرفة، فسـيعْمَد البرنامج التحليليُّ إلى تجزئتها إلى مكوناتها البسـيطة، فكي نَعرف شـيئًا مـا -ولنفرض أنّه (ب)- فإنَّـه سـيتكوَّن من عدد من الحقائق البسـيطة الأخرى، وتبعًـا لأحد الافتراضات الكلاسـيكيَّة لكـي نَعـرف (ب)، فعلـى الشـخص (أ) أنْ يعتقـد أنَّ (ب) حقيقيٌّ، علمًـا أنَّ (ب) حقيقـيٌّ بالفعـل، وَ (أ) لديه مبرِّر للاعتقاد بـِ (ب). لن نعلِّق على كفاية هذا التحليل المفترض بعينه، فالفكرة تكمن هنا في توضيح طريقة التَّحليل. وتلقى المعرفة في هذه النظريَّة اهتمامًا من خلال مصطلحات أخرى تمامًا؛ ففي الحالات الأخرى يقول الفلاسفة التَّحليليُّون: إنّهم يختزلون شيئًا واحدًا إلى آخر، أمَّا المعرفة فهي اعتقاد حقيقيٌّ مبرَّر لا أقلَّ، ولا أكثر.

ولكـي يؤدِّي هذا الاختزال دوره، فيجـب ألا توجد أيُّ دائريَّة (circularity). لا يمكننـا الاعتماد في التَّحليل على الشـيء الذي نحـاول تحليله، وإلا فإنَّ التَّحليل سيفشل، وقد يفشل بطريقة أخرى أيضًا، فلا يمكن أنْ يبقى أيُّ جزء من الظاهرة إلا ويُؤخذ في الحسـبان في التَّحليل، وإذا ما نجح التَّحليل ، وتحدَّثنا عن المعرفة، فإنَّنا نتحدَّث عن اعتقاد حقيقيٍّ مُبرَّر.

تبسيط السَّببيَّة

مع أنَّ الفلسـفة التحليليَّة قد تُعدُّ اتجاهًا حديثًا في تاريخ الموضوع، فإنه يمكن العثور على المنهج الأساسيِّ بالعودة إلى العالِم لوك.

في مقالـه الخاص بالفهـم البشـريِّ (Essay Concerning Human Understanding)، يخبرنـا لـوك أنَّ العديـد مـن أفكارنـا معقَّـدة، ومبنيَّة على أفكار أبسط منها؛ مثلًا: فكرة الهرَّة السَّوداء تتضمن أفكارًا بسيطة عن السَّواد، وغـزارة الشَّـعر، والمشـي علـى أربـع، وغيرهـا. وباسـتعمال أفـكار بسـيطة لدينا يمكننا بناء أفكار معقَّدة عن أشياء لم نشهدها من قبل؛ فرؤية هرَّة، ورؤية اللون الأرجوانيِّ تُمكننا من تكوين فكرة عن هرَّة أرجوانيَّة مع أنَّ شيئًا من هذا القبيل لا وجود له.

إذا تبنَّـى المـرء نظـرة لـوك، فإنَّـه قد يقول عن فكـرة مثل المعرفـة – بصرف النَّظـر عـن أيِّ مظهر مُخالِف- إنّهـا فكرة معقَّدة مكوَّنة من أفكار أكثر بسـاطة، مثـل: التَّبريـر، والاعتقـاد والحقيقة، وإذا أردنـا فهم كيفيَّة الحصـول على فكرة المعرفة، فعلينا أنْ نحصل على الخبرات الأصليَّة التي زوَّدتنا بتلك الأفكار الأكثر بسـاطة؛ ففكـرة مثل الاعتقاد قد تكـون معقَّدة أيضًا، وتسـمح بمزيد من التَّحليل للوصول إلى مستوًى من البساطة المُطلقة. وينبغي القول: إنَّ هذا يسمح بإمكانيَّة انتقاد المنهج التجريبيِّ، كأنْ يقول أحدهم: ماذا لو لم توجد أشياء بسيطة بالمطلق

لاستعمالها في تحليل ظاهرة ما؟ هل يمكن أنْ يوجد المزيد، والمزيد من مستويات التَّعقيد كلما تعمَّقنا في التَّحليل؟

يُنظَر إلى لوك على أنّه مؤسِّس التقليد التجريبيِّ البريطانيِّ للفلسفة، وإذا ما عدنا إلى السَّؤال عن السَّببيَّة، فإنَّ منهج لوك يستفسر عن المكوِّنات الأبسط التي نستمدُّ منها فكرة السَّببيَّة، وقد احتذى هيوم حذو مشروع لوك التجريبيِّ، وسار في ركْبه، وكان جزءٌ كبيرٌ من عمله حول هذا الموضوع بالتَّحديد كما رأينا.

يمكننا تفسير النظريَّات التي تحاول وتسعى جاهدة لإظهار ماهيَّة المكوِّنات الأساسيَّة للسَّببيَّة، وإذا ما أخذنا بالحُسْبان نظريَّة هيوم الأولى مرَّة أخرى، فيمكننا تفسيرها بالقول: إنَّ السَّببيَّة ظاهرة معقَّدة، وتتألف من ظواهر أبسط، هي: الترابط المستمرُّ، والتجاور، والأفضليَّة الزمنيَّة.

لكنَّ الشرط النهائيَّ يثير حفيظة خصومه؛ فهم يقولون: يوجد شيء ما يتعلق بالسَّببيَّة خارج إطار هذه المكوِّنات الثلاثة، ومن الممكن أنْ توجد هذه المكوِّنات دون وجود سببيَّة، وقد يقولون: إنَّ التحليل المزعوم قد فشل؛ لوجود شيء ما لا تلتقطه تلك المكوِّنات الثلاثة غير السَّببيَّة، وهذا ما يكشفه تفنيد النظريَّة بالأدلة.

كيف ستكون عليه الحال إذا كان هذا صحيحًا بالنسبة إلى التَّحليلات المزعومة للسَّببيَّة؟ ربَّما اقتربوا من دائرة الصَّواب، لكنْ توجد دائمًا بعض الأجزاء التي لا يمكن الحديث عنها في مُصطلحات أخرى، ويوجد سبب وجيه لذلك؛ فقد تكون السَّببيَّة غير قابلة للاختزال، أو بدائيَّة. لا يمكننا أنْ نستبدل شيئًا آخر بالسَّببيَّة، ثم نتوقّع أنْ يؤدِّي البديل دور السَّببيَّة تمامًا، ولا يمكننا أنْ ندرج أيَّ شيء سببيٍّ في التحليل في باب الدائريَّة.

المُضيُّ مع البدائيَّة

لقد استفسرنا فيما إذا كان التوجُّه نحو التعدُّديَّة في موضوع السَّببيَّة اعترافًا بالهزيمة، ووفقًا للتعدُّديِّين، فإنَّ نظريَّات مختلفة قد خضعت للمحاولة لكنّها فشلت؛ لذا لا يمكننا أن نعني بالسَّببيَّة شيئًا واحدًا فحسب، وإنّما هي تعدُّديَّة لأشياء مختلفة، ومرَّةً أخرى يرى البدائيُّ أنْ لا نجاح للتحليل؛ لذا فليقتصرْ قولنا على أنَّ السَّببيَّة غير قابلة للتحليل، لماذا لا يكون هذا القول اعترافًا بالهزيمة؟ أليس من الأسهل العمل بإجابة البدائيِّ، والأخذ بها عندما لا نهتدي إلى التحليل الصَّحيح؟ قد يستسلم المفكِّر الكسول مبكرًا منذ الجولة الأولى، ويُعلن استحالة التحليل؛ لعجزه وقصوره عن تقديم الإجابة. لكن، ما الأرضيَّة الصُّلبة التي نقف عليها للمُضيِّ قدمًا نحو بدائيَّة شيء ما؟ وهل يوجد مبدأ عام يرشدنا في هذا الخصوص؟

قد يجادل البدائيُّ في دفاعه عن وجهة نظره بقوله: إنّه في فلسفة لوك خصوصًا، وفي الفلسفة التحليليَّة عمومًا ينبغي التعامل مع شيء ما على أنّه أساسيٌّ.

على المرء أنْ يكون بدائيًّا، ويعمل على تبسيط الأمور، لماذا لا تكون السَّببيَّة كذلك؟ لقد ذُكِر سابقًا أنّه يمكن الطعن في هذا الجزء من النهج التحليلي، فإذا وجد تعقيدٌ غير متناهٍ في العالم عندما نتعمَّق به، فلن يكون ما هو أساسيٌّ البتّة، لكننا لا نعلم على وجه الدِّقة صحَّة هذا الاعتقاد، وفي حال وجود مستوًى من الطبيعة على درجة من البساطة التي يمكننا معرفتها، فإنَّ هذا قد يخدم الأفكار البدائيَّة النّسبيَّة للسَّببيَّة، وقد تكون في النهاية بسيطةً كأيِّ شيء آخر نعرفه، وإنْ تضمنت تعقيدًا كامنًا في ثناياها، ومع ذلك فإنَّ الفكرة التي نحن بصددها تقول: إنَّ بعض الأفكار البدائيَّة ممكن أنْ تكون صحيحة. وعليه، فلا حرج في أنْ نخطو خطوة بدائيَّة لتكون خيارًا لنا على الأقل.

يمكننا التفكير بالسَّببيَّة بوصفها واحدة من أكثر القوى الأساسيَّة في نسيج الكون؛ فهي التي تربط الأشياء ببعضها من خلال روابط جزيئيَّة، وهي التي تُنتِج تغيرًا في شيء من خلال آخر، وهي التي تعطي أهميَّةً للحدث، لماذا لا تكون السَّببيَّة واحدةً من أكثر العناصر أساسيَّةً على الإطلاق؟ وعليه، لماذا يعتقد أحدهم أنَّه يمكننا تفسير السَّببيَّة بمصطلحات غير سببيَّة؟

يبدو أنَّ العلم برمَّته قائمٌ على السَّببيَّة، ووجود الرَّوابط السَّببيَّة بين الظواهر الطبيعيَّة المتمايزة أفضل تفسير للانتظام في العالم، وذلك بادٍ من خلال حواسنا، ويظهر في الترابطات الإحصائيَّة أيضًا. وإذا لم توجد سببيَّة مسؤولة عن هذه الدِّقة البالغة من النظام في عالمنا، فمَنْ غيرها يكون المسؤول؟ قد يكون الانتظام النسبيُّ للعالم غامضًا، ومن دون هذا النظام المحكوم بالرَّوابط السَّببيَّة لن يتمكن العلم من تزويدنا بالتوقعات، والتفسيرات، والثورة المعرفيَّة، وبذلك فإنَّ نشاطًا أساسيًّا قد سمح للبشر بالتقدُّم والازدهار، وعلى ما يبدو فإنَّ هذا النشاط يستندُ إلى وجود السَّببيَّة، لماذا لا يتعيَّن علينا بعد هذا أنْ نكون بدائيِّين؟ إنَّ مجمل علاقاتنا مع العالم يرتكز عليها.

تغيير الاتِّجاه

يمكن تغيير اتِّجاه ما نحن بصدده؛ فبدلًا من تحليل السَّببيَّة بمصطلحات الظواهر الأخرى غير السَّببيَّة، ألا تُحتِّم علينا الضَّرورة تحليل الأشياء الأخرى بمصطلحات سببيَّة؟

تكمن حيويَّة الفلسفة التجريبيَّة في الفكرة المتمثِّلة بأنَّ أفكارنا مستمدَّة من تجاربنا، إذ يعتقد لوك -على سبيل المثال- أنَّ أفكارنا تتشكل عن طريق مُثيرات خارجيَّة تؤثر في أعضاء الحواسِّ لدينا كالضوء مثلًا، ويشير هيوم إلى أنَّ تجربة الانتظام تقودنا إلى بلورة توقُّع عن المستقبل، ويكمن هذا في أساس نظريَّته عن

السَّببيَّة. لكنْ عند شرح هذه الآليَّة التي تبرِّر النظريَّة التجريبيَّة للخبرة، علينا أنْ نستدعي روابط سببيَّة في أماكن عديدة؛ مثلًا: تؤثر المثيرات الخارجيَّة في قدرات حواسِّنا، وتدفعنا أنواع معيَّنة من الخبرة إلى بلورة التوقُّع وتشكيله؛ فالانطباع، والتأثير، والإجراء، والقيادة مصطلحات سببيَّة محدَّدة.

واستنادًا إلى ما تقدَّم، يبدو أنَّ الفلسفة التجريبيَّة تعتمد على السَّببيَّة؛ لذلك، هل ينبغي أنْ تكون في إطار اختزال السَّببيَّة إلى أشياء أخرى؟ وهل سيبقى هذا الأمر معمولًا به بعد حدوث هذا الاختزال؟ انتقد هيوم هذه الأسس بالتَّحديد على الدَّوام، ويبدو أنَّ النهج ذاته الذي استعمله لاختزال السَّببيَّة إلى حدٍّ كبير يُعْمَل به في حالة وجود روابط سببيَّة مختلفة في المشهد، والتي تتحكَّم في عادات التفكير البشريِّ.

وتكمن خلف خط الهجوم هذا منطقيَّة النظريَّة السَّببيَّة للإدراك، وتبرز أهميَّة الإدراك في فلسفة لوك عندما يوضِّح لنا أنَّ العقل البشريَّ يستدعي الأفكار عند حاجته إليها. ولكن، ما الذي يدفعنا لإدراك شيء ما؟ يبدو أنَّها ظاهرة سببيَّة لا يمكن اختزالها، وعلى أقلِّ تقدير لإدراك (ف) -مهما تكن ماهيَّته- على (ف) أنْ يُولِّد فكرة أو اعتقادًا لدى المُدرِك، فيكون بذلك سببًا في ولادة هذه الفكرة، أو ذاك الاعتقاد.

لدينا مزيدٌ من الأمثلة لتحليل جوانب الإدراك، فقد يعتقد أحدهم بوجوب تشابه الفكرة أو تطابق الاعتقاد مع ما هو مُدْرَكٌ، لكن مهما تكن الطروحات المُسْتندة إلى هذا التَّحليل، فقد يفكِّر المرء بأنَّ الرَّابط السَّببيَّ يجب أنْ يكون في مكانٍ ما، فإدراكنا للعالم يكمن في أساس معرفتنا كلّ شيء، وستكون السَّببيَّة الشيء الأكثر أهميَّة؛ لأنَّ أيَّ معرفة تجريبيَّة تستند إلى وجود روابط سببيَّة بين العالم، وإدراكنا له.

انطلاقة نحو النجاح

يوجد سؤال آخر يتعلق بالإدراك، وهو: هل يمكننا معرفة السَّببيَّة بصورة فوريَّة؟ أم أنّنا سنستدلُّ عليها بإدراك أشياء أخرى؟

يوجد سبب وجيه لطرح هذا السؤال مفاده أنَّ بعض الأفكار بدائيَّة، ولكي تكون كذلك - بالنسبة إلى التجريبيِّين- عليها أنْ تُختبَر فورًا؛ لأنَّ هذه الأفكار لم تتولَّد من أفكار أخرى؛ لذا على الفكرة أن تكون مُكتسَبة على الفور. لسنا مضطرين إلى قبول وجهة النظر هذه، ولا يقبل أيّ أحد بالافتراض التجريبيِّ حول كيفيَّة معرفتنا للأشياء. لكنَّ البدائيِّين سيعزِّزون موقفهم بالتأكيد ضدَّ أيِّ هجمة تجريبيَّة إذا استطاعوا أنْ يثبتوا امتلاكنا معرفة تجريبيَّة للأسباب.

تقول وجهة النظر الهيوميَّة: إنّنا لا نختبر السَّببيَّة بصورة فوريَّة على الإطلاق؛ فعندما تضرب كرة البلياردو كرةً أخرى لا يمكننا رؤية رابط سببيٍّ يجمع بينهما، وإنّما ندرك ما يحصل بوصفه سلسلة من الأحداث المترابطة فيما بينها، حيث يُستدلُّ على المعرفة السَّببيَّة - بالنسبة إلى هيوم- من خلال رؤية حالات متكرِّرة لمثل هذه الترابطات المستمرَّة، ولا يتفقُّ الجميع مع هذا الطرح الذي ذهب إليه هيوم، ويتأثر عدد من الفلاسفة برأي توماس ريد (1710–96م) الذي يعتقد أنَّ السَّببيَّة شيء يمكن رؤيته على الفور، لكن كرات هيوم مثال غير مناسب لرؤية ذلك.

لنأخذ بدلًا من ذلك مشاهدة عينيَّة لغطَّاس يقفز عاليًا من فوق لوح قفز وفق التسلسل الآتي: يركض الغطاس على طول خشبة اللوح، ثم يقفز عن اللوح لينحني اللوح تحت تأثير وزنه، ومن ثمَّ ينطلق في الهواء، ويغطس في المياه. ألم نرَ سببيَّة في المشاهدة السَّابقة؟ هل نرى قفزة الغطاس فورًا، أم نرى أنَّ وزنه سبَّبَ انحناء اللوح؟

سيقول بعض الفلاسفة: إنَّ ذلك ممكن، لكنَّ المشكلة هنا في أنَّ المُدافعين عن نظريَّة هيوم لا يوجد ما يجبرهم على التخلي عن تفسيرهم لما حدث، فهم سيتمسَّكون بقولهم: إذا رأينا مثل هذه الحالة مرَّة واحدة فقط، فلا نستنتج أنَّ الغطاس هو من تسبَّب بانحناء اللوح، ولن تصحَّ مثل هذه الفكرة إلا بالتكرار.

وكيل سري

مع ذلك، فقد أُغفِلَ عاملٌ رئيس، وهو قاب قوسَيْن أو أدنى، لقد تكلم هيوم عن السَّببيَّة بوصفنا مراقبين مستقلين وحياديِّين؛ فقد يراقب الفيلسوف لعبة البلياردو، وقد يسجِّل العالِم الترابطات المستمرَّة، ولا يتدخل أيٌّ منهما فيما يراه؛ لذا يجب على من يقوم بالتجربة أنْ يتفادى التأثير في النتيجة قدر الإمكان.

لسنا بمعزل عن العالم السَّببي، بل نحن جزء منه، وبمعنًى آخر نحن وكلاء -عناصر- سببيُّون؛ فأعمالنا تستند إلى السَّببيَّة، ولهذه الأفعال آثار ونتائج.

إنّنا مرضى سببيُّون أيضًا؛ فالأمور تجري بصورة سببيَّة بالنسبة إلينا؛ لذا نحن إيجابيُّون وسلبيُّون سببيًّا على حد سواء، ومثل كلِّ شيء آخر، لا مفرَّ لنا من الشبكة السَّببيَّة للعالم.

يبدو الأمر كما لو أنَّ هيوم يفضِّل بقاء هذه الوكالة سريَّة؛ فهو يعتقد أنَّ رؤية السَّببيَّة غير ممكنة عند مشاهدة تصادم كرات البلياردو؛ لكن، هل كان ليقول الأمر نفسه لو كان في موضع الكرات؛ يقوم بالتَّسبُّب، ويتلقى فعل السبب؟

إذا افترضنا أنَّنا قادرون على التَّسبُّب بالأشياء، هل سيجد البدائيُّ في ذلك تجربة فوريَّة للسَّببيَّة؟ يمكننا القول بذلك؛ مثلًا: عندما ترفع حقيبة ثقيلة، تشعر أنَّ عضلاتك مشدودة، وربما تشعر بحاجة إلى بذل جهد أكبر لرفعها، عندئذٍ يزداد الألم في ذراعك مع بذل جهد أكبر، لكنك تنجح في رفعها في نهاية

المطـاف، في هذه الحال أنت الوكيل السَّـببيُّ فيمـا يتعلق برفع الحقيبة، و يراودك الشُّعور الفوريُّ بينك وبين نفسك بإتمام المهمَّة.

تُدعى هذه الحاسَّـة التي يشـعر بها المرء عندما يبذل جهده باستقبال الحسِّ العميـق (proprioception)، ويُتغاضـى عنهـا أحيانًـا؛ لأنّهـا ليسـت واحدةً من الحواسـ الخمسـ التي تُدرَّس في المدرسة، لكنَّ علماء النفسـ يُقرُّون بوجود أكثر من خمسـ حواس، ويعتقدون باستقبال الحسِّ العميق بوصفه واحدًا من الحواسِّ الإضافية.

يعطينا اسـتقبال الحسِّ العميق شـعورًا بالجهـد المطلوب، فالمسـألة لاعلاقة لهـا بمعرفـة الزمن الـذي نحتاج فيه إلـى بذل مزيد مـن الجهد؛ لأنَّنا نسـتعملها بوصفهـا معيـارًا عند بـذل جهد كبير جـدًّا؛ لنفرض أنّك تريد رفـع حقيبة كبيرة دون أنْ تعـرف بأنّهـا فارغـة؛ لـذا سـيكون وزنهـا الخفيـف مفاجئًا لـك، ويدفعك الإدراك المفاجـئ إلـى تعديل الجهد من جديد لئلا ترمي الحقيبة في الهواء ببذل جهد إضافيٍّ. نحن لا نشـعر بالسَّـببيَّة من خلال اسـتقبال الحسِّ العميق في حالة الفعـل فقـط، فـإذا دفعنـا أحدهم نكون في هذه الحالة سـلبيِّين، وسـيكون الجهد المبـذول لمقاومـة الدفع محدَّدًا من خلال اسـتقبال الحسِّ السـليم؛ نقـاوم الدفع لكيلا نسـقط إلى الوراء، لكنَّ المقاومة يجب أنْ تتناسـب مع القوة المُمارَسـة لئلا نسقط إلى الأمام.

مخلوقات هيوميَّة

أدرك هيوم أنَّ خصمًا ما قد يدَّعي بأنَّ البشـر وكلاء سـببيُّون لديهم معرفة تجريبيَّـة للسَّـببيَّة؛ لـذا حاول اسـتباق هـذا الادعاء بقولـه: إنَّنا لا نختبر تسـبُّبنا لشـيء مـا فعـلًا. مرَّةً أخرى، لقد أشـار إلـى أنَّ اعتقادنا في وكالتنا الذاتيَّة ليس سوى توقع مبنيٍّ على ترابط مستمرٍّ للإرادة والحركة؛ فنحن نريد أنْ نفعل شيئًا،

ومن ثمَّ يتحرَّك جسدنا بالطريقة المناسبة؛ على سبيل المثال: يريد رجل أنْ يرفع حقيبة، ومن ثمَّ ترفعها ذراعه، وعندما يحدث ذلك مرَّات عديدة، يفكِّر الرجل بأنّ إرادته هي المُسبِّب لحركته الجسديَّة.

مع ذلك، هل تسير أفعالنا في هذا المنحى؟ هل تسبق الإرادةُ الفعلَ ذاته بصورة مؤقتة؟ وهل تختلف عنه؟ لقد تعرَّض هيوم للنقد من قبل فيتجنشتاين، وآخرين لفصل الإرادة عن الفعل؛ فالمرء يمكنه أنْ ينشئ آمالًا، أو تكون لديه نيَّة لفعل الأشياء في المستقبل، وهذا يدلّ على أنَّ الفعل وإرادته متزامنان وغير قابلَيْن للفصل بينهما؛ لنفرض أنّه في أثناء رفع رجل حقيبة ثقيلة، يفقد فجأةً إرادة فعل ذلك الشيء بصورة كليَّة، وهذا يعني أنَّ الرجل على الأرجح سيتوقف عن رفع الحقيبة، ألا يُظهِر هذا أنَّ الإرادة يجب أنْ ترافق العمل في كل مرحلة لكي يحدث الفعل؟

إذا كانت الإرادة تسبق الفعل بصورة مؤقتة، فكيف لها أنْ تعمل بناءً على ذلك؟ ففي الوقت الذي يأتي فيه الفعل تكون الإرادة قد ذهبت، لكن العلاقة بين الإرادة والفعل لا تقوم على أساس التلازم بينهما فقط، إنّما هي علاقة تكامليَّة أيضًا، علمًا أنَّ الإرادة تعمل باستمرار بناءً على رد الفعل المكتسب بوساطة استقبال الحسِّ السَّليم بما يضمن التحرُّك بالصورة المطلوبة لتحقيق هدف الفعل.

يمكن أنْ يقال الكثير حول هذا الموضوع، لكنَّ بعض القضايا الرئيسة قد أوجزت هنا، حيث إنَّ القدرة على إظهار تجربة فوريَّة للسَّببيَّة سيُعزّز موقف البدائيَّة تجاهها، وتبدو أفعال هيوم الأوفر حظًا للحصول على ذلك، لكنّ هذا لا يعني أنَّنا قادرون على اختبار كلّ حالة سببيَّة فورًا؛ فالكثير من معرفتنا للسَّببيَّة قد يتأتَّى عن طريق الاستنتاج، لكن هيوم كان متشككًا في الأساس حول كيفيَّة

إمكانيَّة حصولنا على أيِّ معرفة فوريَّة للأسباب، وإذا ما كُتب لنا النجاح في حالة واحدة فقط، فيمكن أنْ نجيب عن هذا الاعتراض المتشكك.

obeikandl.com